المحاضرة السادسة: المؤسسات الثقافية(المساجد والزوايا)

1- المساجد:

تعتبر من أهم المؤسسات التعليمية، وهي من المظاهر والمنشآت العمرانية التي تزخر بها مدن وبوادي الجزائر. وقد ذكر الأسير الاسباني في الجزائر ديقو دي هايدو (Diego de Haedo 1527-1608) خلال تواجده في الاسر بمدينة الجزائر في الفترة الممتدة من 1578-1581، أن مدينة الجزائر تمتلك ما بقارب مائة مسجد كبير وصغير تقام فيها الصلوات الخمس، وهي محاطة بعناية كبيرة من طرف السلطة والسكان، ويواصل في ذكره لأهم مساجد المدينة من حيث تواجدها وأهميتها.

كما يذكر فونتير دو بارادي (Jean Michel Venture de Paradis 1739-1799) في كتابه «...أن مدينة الجزائر تتوفر على إثنى عشرة مسجداً كبيراً ببناءات مزخرفة وعدد كبير آخر من الجوامع الصغيرة في مختلف أحياء مدينة الجزائر المحروسة يتلو فيها القرآن الكريم وتعليم مختلف العلوم الفقهية من دروس يقدمها فقهاء وعلماء ومعلمون لمختلف طلبة مدن الجزائر الذين يتوافدون على مدينة الجزائر....».

ومن أهم مساجد المدن الجزائرية الكبرى نذكر جامع كتشاوه1612، ومسجد علي بتشين 1622، ومسجد علي خوجه1693، وجامع عبدي باشا 1726، ومسجد علي باشا 1758، ومسجد القصبة 1818 بدار السلطان. أما مدينة قسنطينة فقد عرفت هي الاخرى بناء عدد من المساجد ومن أهمها الجامع الكبير القسنطيني وجامع سيدي الكتاني(1777) والجامع الاخضر(1743) وجامع حسن باي.

كما كانت مدينة تلمسان منارة علمية هي الاخرى بانتشار المساجد ذات البناء العمراني الاسلامي المميز ومن أهمها الجامع الاعظم (1080م واعيد بناءه بتاريخ 1135م)، ومسجد سيدي ابي حسن التنسي ومسجد سيدي الحلوي الشوذي، وعرفت هي الاخرى مدينة عنابة

أجمل المساجد مثل مسجد صالح باي الذي شُيد سنة(1792م). كما أن مدينة وهران هي الأخرى عرفت انتشار المساجد بعد تحريرها من الاحتلال الاسباني سنة 1792، فقد قام الباي محمد الكبير سنة 1796 ببناء مسجداً سمي باسم المسجد الكبير أو مسجد الباشا تخليداً لفتح مدينة وهران.

وشهدت حاضرة مدينة معسكر انتشار المساجد في مناطقها ومن مساجدها الكبيرة مسجد محمد الكبير المعروف بجامع عين البيضاء، وهو من بين أروع مساجد الغرب الجزائري، كما يعرف عند عامة الناس في المنطقة بمسجد المبايعة ومسجد سيدي حسان.

ومما سبق، فإن الاهتمام ببناء المساجد والعناية بها وصيانتها خلال العهد العثماني كانت ظاهرة مميزة شارك في بنائها السكان والحكام على حدّ سواء. مما جعل المجتمع الجزائري المسلم يرتبط بدينه ايما ارتباط. اما الظاهرة المميزة في هذا الامر، فان المساجد تحولت من دور العبادة الى الدور التعليمي المميز لها، من خلال تقديم دروس متنوعة وعديدة في مجال العلوم القرآنية وعلوم الحديث والتفسير وعلوم الفقه والقراءات، ومن هنا كان الدور الثقافي للمساجد وتميز من خلال امتزاج الدور الديني بالدور الثقافي.

فقد شهدت المساجد انتشار المكتبات الملحقة بها، وفي هذا الصدد يقول الرحالة التمقروتي عند مروه بمدينة الجزائر عائداً من مدينة استانبول«... **والكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد افريقيا وتوجد بها كتب الاندلس كثيرا....»**، ويضيف المرحوم الاستاذ أبو القاسم سعد الله «...**أن الباحثين الفرنسيين الذين شهدوا وجمعوا المخطوطات من مكتبات المدن الجزائرية غداة الاحتلال، كانوا مندهشين من كثرة الكتب التي وجدوها ومن تنوعها ومن جمالها والعناية بها....»** ، ومن المؤكد أن تلك المخطوطات المنهوبة تواجدت على رفوف المكتبات المسجدية المنتشرة في معظم المدن الجزائرية وريفها.

2- الزوايا:

-الزوايا:

إن أبرز ظاهرة شهدتها مدن وأرياف الجزائر خلال العهد العثماني، إنتشار الزوايا عبر أرجائها وبكثافة، ساهمت فيها عدة عوامل في انتشارها، منها دور السلطة العثمانية عبر مراحلها في تشجيع بناء الزوايا من اجل السيطرة على السكان من خلال الدور الذي سيلعبه علماء وطلبة الزوايا في ربط سكان الجزائر بالسلطة، اذ ساهمت في استقرار نظام الحكم لعقود طويلة. فضلا عن الدور الرئيسي الذي تأسست من أجله وهو نشر التعليم القرآني وعلوم الفقه ومبادئ القراءة والكتابة في صفوف الجزائريين.

وكانت تحتل مكانة هامة بين مراكز الثقافة من خلال تعليم الفئات الفقيرة من الطلبة والتلاميذ في المدن وخاصة الأرياف. وبسبب عددها الكبير صارت تشرف على المجتمع في الريف والمدينة، من خلال دورها التعليمي والخيري والاجتماعي ونشر مبادئ الاسلام واحياء تعاليمه في نفوس الجزائريين وايواء الفقراء والمحتاجين وعابري السبيل.

ويعرف الاستاذ يحي بوعزيز رحمة الله عليه الزاوية «... **بأنها عبارة عن مجمعات من البيوت والمنازل المختلفة الاشكال والاحجام تشمل على بيوت للصلاة كالمساجد، وغرف لتحفيظ القرآن الكريم، وتعليم العلوم العربية، وأخرى لسكنة الطلبة، وطهي الطعام، وتخزين المواد الغذائية، والعلف وايواء الحيوانات، التي تستعمل في أعمال الزاوية....**»

وتجدر الاشارة هنا، الى اختلاف عددها من مدينة لأخرى، ووجودها في المدينة والريف من جهة أخرى. وتذكر المصادر التاريخية المحلية والاجنبية أن مدينة الجزائر كانت تعج بالزوايا والأضرحة والقباب، فقد أحصى ألبير دوفو محافظ الأرشيف العربي بالجزائر سنة 1830 إثنى عشر زاوية واثنان، وثلاثون ضريحاً، وثلاثة عشر مسجداً كبيراً، ومائة وتسعة

جامعاً، وبقي منها سنة 1862 بسبب السياسة الاستعمارية في تدمير المعالم الثقافية والعلمية للجزائر تسعة مسجداً، تسعة عشر جامعاً صغيراً، وخمسة عشر ضريحاً، وخمس زاوية.

ومن بين الزوايا التي كانت لها مكانة كبيرة في نفوس العامة من الناس، يذكر ابو القاسم سعد الله زاوية عبد الرحمن الثعالبي، وعبد القادر الجيلاني، وسيدي الكتاني، وسيدي الفاسي، وزاوية سيدي أحمد بن عبد الله الجزائري، إن قائمة زوايا مدينة الجزائر وضواحيها القريبة طويلة، مع أضرحتها للأولياء الصالحين، دلالة على عمق ارتباط المجتمع الجزائري بأصالة دينه الاسلامي واحترامه لعلمائه وشيوخه، وتمسكه بطلب العلوم القرآنية الكثيرة.

وفي الحقيقة، فإن مدن الجزائر وريفها لايختلفان عن عاصمة البلاد من حيث المنشآت الدينية، فكل منطقة من الجزائر، إلّا وتفتخر بعلمائها الأفذاذ وزواياها ومساجدها وجوامعها وأضرحة صلحائها. فها هي مدينة قسنطينة تُعرف هي الأخرى بأنها مدينة العلم والعلماء يذكر ابو القاسم سعد الله، بعض من زوايها مثل زاوية أولاد الفكون، وإبن نعمون، وزاوية أولاد جلول.

وبقيت مدينة تلمسان تحافظ على مكانتها العلمية الرائدة في العلوم ومكانة علمائها خلال العهد الزياني، فقد عرفت هي الأخرى ارتباطها بالزوايا والتي اشتهرت بها في القطاع الغربي من الجزائر، حيث وصل عدد الزوايا في المدينة وضواحيها ما يقارب الثلاثين زاوية ومن أشهرها زاوية عين الحوت، وزاوية سيدي الذيب، وسيدي بومدين، وزاوية محمد السنوسي.

كما تعد منطقة القبائل من أغنى مناطق الجزائر التي احتضنت أنواع المؤسسات الدينية وأكثرها الزوايا، فقد كانت مركزاً للإشعاع العلمي والديني لمختلف العلوم الاسلامية، ولا تخلو منطقة من منطقة القبائل عامة من انتشار المساجد والزوايا والأضرحة والمدارس والكتاتيب، وذكرت المصادر التاريخية أكثر من خمسين زاوية منتشرة في مدن وفحوص المنطقة تخرج منها عشرات العلماء والطلبة واكتسبت المنطقة مكانة في مقاومتها للاحتلال الفرنسي لاحقاً.

ومن أنواع زوايا المنطقة نجد زوايا المشايخ مثال الزاوية الرحمانية، وزوايا المرابطين التي تنتمي الى مؤسسها الاول، وزاوية الطُلبة وهي زاوية تقوم على قيام الطلبة بشؤون الزاوية بشكل مستقل عن اي شيخ، وزوايا العلم والتي تقوم على تعليم الطلبة مختلف العلوم النقلية ومن بين أشهر زوايا المنطقة، نذكر زاوية تيزي راشد أو زاوية إبن عراب، وزاوية الأزهري، ابن علي الشريف بأقبو، وزاوية سيدي منصور.

والى شرق منطقة القبائل ببلاد بجاية، فقد شهدت المنطقة هي الأخرى، مجموعة من الزوايا ومن أهمها زاوية الشيخ أحمد بن إدريس البجائي(1359)، وزاوية الشيخ الحاج حساين(1368)، وزاوية الشيخ يحي العيدلي(1476) وزاوية محمد التوتي(ق15م)، وزاوية سعيد بصدوق(ق15م) وزاوية الشيخ أحمد بن يحي بأمالو (ق15م)، وتخرج منها عدد كبير من علماء وفقهاء الجزائر منهم أبو زكرياء يحي الزواوي والشيخ الصالح أبي عبد العزيز بن الخراط والفقيه أبي طاهر اسماعيل بن مكي بن عرف الزّهري وغيرهم.

هذا وتجدر الإشارة أن، تواجد الزوايا في الجزائر لم يقتصر على المناطق المذكورة آنفاً، بل شهدت بقية المناطق والمدن الجزائرية الأخرى انتشار مؤسسة الزاوية في مدينة معسكر والمدية ومستغانم ومنطقة توات ومدينة عنابة.

ومن العوامل التي أدت الى انتشار الزوايا خارج المدن في ارياف الجزائر، أنها كانت بعيدة عن أعين السلطة بحيث كانت بعض الزوايا ترفض الوجود العثماني في الجزائر، كما أن ارتباط بعض الزوايا بالمرابطين ادي الى ازدياد اتباعها بسبب بساطة تفكير أهل الريف وحبهم للدين الاسلامي، الى جانب انتشار المرابطين بشكل كبير في ارياف الجزائر، كما كان أهل الريف يقدمون جزء من انتاجهم الزراعي(الوقف) الى الزوايا من اجل تدعيمها في مجال التعليم، كما ان انتشارها في الريف يعود الى انتشار المدارس في المدن بشكل كبير ومن هنا نستخلص ان الزوايا في الريف كان لها دورا هاما في مجال التعليم. وانتشرت الزوايا في بايلك الغرب الجزائري اكثر من غيره بسبب الوجود الاستعماري المتمثل في

الاحتلال الاسباني لمدينة وهران ومحاولة قادة الزوايا من الطرق الصوفية البقاء كرباطات بالقرب من مدينة وهران لتحريرها في اقرب فرصة ممكنة والمشاركة في ذلك، والى جانب قرب بايلك الغرب الجزائري من المغرب ونتيجة الاحتكاك العلمي بين المنطقتين واستمرار الاتصال، تأثرت منطقة البايلك بانتشار الزوايا في المنطقة علما أن المغرب كان يعرف انتشاراً واسعاً للزوايا التي لعبت دوراً هاماً في مجال التعليم والثقافة.